

عذرأ حماة ليس بوسعي إلا البكاء

الكاتب : التورس

التاريخ : 25 سبتمبر 2012 م

المشاهدات : 10110



عذرأ حماة ليس بوسعي إلا البكاء، ليس بوسعي إلا أن أهوي على سريري والعينان تذرفان دموعاً تترى، وجسدي تغزوه قشعريرة ناعمة تنتابه رويداً رويداً وهي تتجه متماوجة إلى الأعلى، ولسانني يلهج بالدعاء، ما أكرمك يا الله، ما أعدلك يا رحمن يا رحيم، ما أوسع فضلك يا كريم يا واسع، أنت رب العالمين وأنت رب العرش العظيم.

تلك هي عبارات راودتني وأنا على وشك كتابة قصيدة بعد أن توارد إلى سمعي تسمية جمعة من جمع الثورة السورية باسم حماة في الذكرى الثلاثين للمجزرة الرهيبة والأساة العظيمة، قالوا (عذرأ حماة سامحينا) هكذا سموها، نعم دون شك أو ريب، وإنني والله حسبت أن الزمن قد طمسها وحسبت أن ثنايا الوقت غيبتها في غيابت الأيام وتلافيف الدماغ المطوية الغائبة عميقاً عميقاً في العقل الباطن دون عودة ودون استذكار،

إنه كرم الله وإنه فضل الله، رغم الآلام ورغم الذكريات الأليمة فقد انتابني فرح واعترضني غبطة فازداد يقيني بعدل البارئ المصور الحنان المنان، فمن فرط جبروت هذا النظام الفاجر وكثرة مكره ودهائه وعموم خبته لم يكن بمقدوري أن أتصور اليوم الذي يجاهر الناس بالكلام عن مجررة حماة التي اقترفتها عصابات عائلة الأسد ومن شايعهم في ثمانينات القرن العشرين، ومن فرط جبروت هذا النظام تلاشت الأفكار وانهمر السديم يغطي الأحداث ويطمرها تحت رماد كثيف وغشاوة

سميكه، ورغم أن الإيمان بالله الأحد الصمد موجود في القلوب بحمده تعالى إلا أنَّ عظم الحادثة وما جاء قبلها من مأسى متعددة قادت إليها وما جاء بعدها من السكوت والتعتيم الإعلامي والصمت الداخلي والإقليمي والدولي والبطش الشديد والأساليب القمعية العديدة حال دون التفكير السديد ودون الانطلاق، ولكن العذر أن لا عذر، وماتات القضية سنوات طويلة تناهى الناس جراهم أو عضواً عليها مكرهين، واستمرت الحياة رغمًا عنهم بأمر الواحد الأحد، حتى جاء هذا الطوفان الكريم، هذا السيل الجارف وهذه الإرادة الجباره العظيمة مما كمن في نفوس هذا الشعب الطيب القوي بفضل الله وحوله.

أعطيك يا بلي جمبل حناني *** أهديك حباً باسقات جناني
وسقوك من دمع العيون غدائراً *** ومن الدماء جداول الوديان
وخباء الندى يقتات من آلامه *** والنور بات بآخر الأزمان
وتطاول الطاغوت فوق رقابنا *** وحرابه دأبت على الطغىان
حتى إذا صاح الصباح بأهلاها *** فهي الكرامة دفقة الإنسان
هذا وفضل الله أفضلي مانع *** تمضي وترجو رحمة الديان

أذكر أنه بعد سنة أو سنتين خرج للوجود على استحياء كتاباً اسمه (حماة مأساة العصر)، لم أعلم به ولكن زميل دراسة عراقي في بلاد الغرب أخبرني أنه رأى هذا الكتاب بعد أن علم أمني من المهاجرين من أبناء حماة.. تجاهلت الأمر وتحاملت على نفسي بعيداً عن الموضوع وكأنني لم أسمع به لأن الثقة وقتها كانت مفقودة في جميع البشر عموماً وذلك من كثرة المخبرين داخلياً وخارجياً..

كان الرعب يحيط بنا والخوف يركبنا حتى في البلاد البعيدة لأن النظام زرع الخوف في نفوسنا من كثرة الدهاء والمكر والخبث والقتل والتنكيل، يلاحق أهلاها إن لم يستطع الإيتان بنا، فله أساليب لا تخطر على بال بشر وذلك على مبدأ إذا لم تستح فافعل ما شئت، ومن علم بذلك الأمور عن دراية وخبرة ليس كمن سمع وقرأ

كنت أكتب القصيدة تلو القصيدة وأواري خاطراتي وأحساسي وأحبس أمنياتي وأحجر على أفكاري وأضبط نفسي وألجم أحاسيسني كي لا تنفلت فأتسبب في أذية أهلي في سوريا من قبل زبانية النظام، كنت أخفي ما بداخلي أمام الملا، كنت أتخفي عندما أرى سوريين مجتمعين، حاولت المشاركة بمهرجان شعرى عربي ليس له علاقة بالسياسة وذلك في الولايات المتحدة ولكني شعرت أن العيون كانت لنا بالمرصاد، لا يعرف الإنسان من أين يأتيون، وبعد ذلك بستين كنت لا أقول لأولادي عن جميع الحقائق التي مرت بنا وبالبلد كلها خوفاً عليهم من بطش النظام إن هم تكلموا لأصدقائهم أثناء زيارتنا للبلد الحبيب، كنت أستعمل الرمز العميق في الكتابة ومع ذلك ينتابني شعور بالقلق حين وصل الأمر بنا - من شدة خوفنا - أنهم قد يقرؤون الأفكار، فسامحينا يا حماة، سامحينا أيتها الجوهرة الثمينة.

عذراً حماة، فصوت الحق قد بانا *** عذراً أتيتك إذعاناً وإذانا
عذراً حماة وفي الأحشاء نيران *** صمت العروبة أرداها وآذانا
اليوم يومك فالديجور منسحب *** عذراً فإن قدوم الفجر قد حانا
أبشر أخي نفوس الناس في ألقِ *** يستبشرون من الراحات ألوانا
من يفتر اليوم يلق الهون في غده *** ويلعى الذل تعريفاً ونكرانا

أيها النظام الفاجر الذي هوى على رؤوس العباد بفأس من شواط رهيب.

أيها النظام المتعجرف الذي أرسل على الهمات أحزمة من لهب شديد.

أيها النظام الكذاب الأشر، سلاحك فيتو، وسلاحي صمود وقدر، سلاحك فيتو، وسلاحي يقين وصبر، سلاحك مكر وخبث وخدعه، وسلاحي ثقتي بشعب كريم لا يهاب الواقعية، سلاحك مدفع ورصاصة، وسلاحي وعد ربي الذي لا يؤوده حفظ السماوات والأرض.

فأنا الشعب الذي وضعه الله على هذه البقعة المباركة من الأرض، تلك هي الأمة الوسط، تسومها أنت ومن تبعك سوء العذاب وتجرعها كؤوس الذل والهوان، أما آن لك ولطغتك القاتلة الكريهة أن ترعنوا أو أن تستيقظوا من سباتكم العميق، أما آن لكم أن تفهموا أن هذا الشعب كريم أبي مقدام، فهو لا يبالي بالموت إن كان في السبيل الأسمى

الراحلون إلى الرحمن ما فتئوا يستبشرون وما أدركوا ماغنموا الطائرون إلى النعما مكرمة النائمون على متن الأثير هم الوارثون وما أدركوا ماد العيون وهائم في السنما علم والفجر يبزغ لا مناص لنوره هل يحجب الشمس من موالي الصنم قمع وتنكيل وجهالة، كيد وخبث وعمالة، لص وحرامي وحثالة، هل تدرؤن أيتها الطغمة الفاجرة أن سلاحكم نادر، سلاحكم لم يعهد البشر في العصر الحديث، فقد غاب إبليس وتصحر ثم انتحر حين لم يقدر على مجاراتكم بالخبث والدهاء والقتل.

هذا التنكيل والتمثيل بالجثث وهذا الاعتداء الصارخ على البشر والحرث والأعراض لم يأت الزمان بمثله، ولن يأتي حسب يقيني، فلقد رضعوا لبان الحقد من أوکاره، فلا النجم سار في أفلakte كما يزعمون ولا العملاق كان عملاقاً كما كانوا يصوّرون، لقد شربوا التأثير من كؤوس لا قراره لها مترعة بعقيدة فاسدة وتعليمات خفية نتن.

بلدي وفجر العمر يلتقيان *** والظالم النازي بلا وجدان

صوّلاته كضميره متھاك *** وبصيرةٌ تحثار في الروغان

شدّ الحزام وقام في أرجائها *** عسفاً وجوراً ناطق الهنديان

والأرض صار من الدما أنها رها *** فأديمها قطعٌ من الثوران

عندما عزموا على صب حقدهم عليها وأجمعوا أمرهم اصطفوا أرتالاً من الكراهة وكتائبأ من الحقد الطائفي الأرعن، عندما نضوها استجرات الدنيا ولكن الأنفس البشرية لم تقم ولم تنبس الأقوام ببنت شفة إلا من تصريحات خجولة هنا وهناك ما ليثت إلا قليلاً ثم خبت، لقد أجرم العالم بالصمت عن مجازر فظيعة، ولم نكن ننتظر النصرة العسكرية إلا أننا شعرنا بالخذلان من القريب والبعيد عندما تم طمس الأمر دون إعلان أو استمرار، ومع هذا الخذلان البشري الإنساني فقد تعالت صيحات الطوب في المدينة وتتسامت مناداة الرمال، وتفاقمت أنّات العاصي معلنة الحداد على أهله، كان خراباً يندى له جبين الإنسانية، والناس في الوطن العزيز في سبات، ثم أتى صمت له دويٌ رهيب، شعرتُ به عندما رأيت جزءاً صغيراً من المشهد المأساوي في بعض أحياط حماة ليلاً، وبعد شهرين من المذبحة تسنى لي أن أمر من حماة قسراً وأنا داخل سيارة الأمن العسكري بعد توقيفي وتعذيبني وما أكثر القصص الحزينة، وأنا مذهول مذهول مصدم من الخراب والدمار

نُقْضَتْ ...

فتعالت صيحاتٌ من أنة طوبٍ وحنينٌ

لزم التاريخ مكانه، والنهر ركام ... وحطام

للمنظر صوت ودوّي وطنين

حزنت كلمات الماضي

تجتاح سلالة بابل

وعاردت فاغرة الفيه

فكبرت أرقام الترحيب المجرم

وفيها لهيب وحميم

وتراءت أفكار التاريخ صمودا

في وجه الأيام كزيف ناقص

قد صار المنظر وحي مشين

سارت أنحاء التاريخ بنهر

متتسخ بالطين هزم التاريخ مثلا ..

فالنار جموح .. وخيول وصهيل

فارفع رأسك يا تنين

نُقضتْ ... فانتهكتْ ...

فانعدمت أصوات الحرج الدامي

قد أضحي الوقت هلاماً غير مكين.

وتحتها القبور المفتوحة، تعانق أشرعة الأثير،

وتركب صهوة الليل نحو خيوط من البياض والنور ،

ونواجذ الأيام تمسك بهذا السنما الوردي الحائم فوق ظلال الياسمين،

وغابات الجبال الندية تتمايل مع نسائم الفجر القادم من روائح دم الشهداء،

وحبات الصنوبر الجبلي تتتساقط وتمشي على جميع بقاع الوطن قرباناً للحرية وموقداً للكرامات،

ترتفع الحجارة رويداً وهي تهمس للطيف حكايات عن القادمين إلى الرسول تحية وحباً،

وتحيي هؤلاء المسافرين إلى غير رجعة وأرواحهم تطير فوق المعالم الأثرية وفوق المدن الحجرية والقرى الرملية والحقول الشاسعة،

وترفع المآذن الدعاء للبارئ الحكيم عندما يصل القادمون،

تحية من الله مباركة، أرتالاً من الشهداء على درب الكرامة والإنسانية

هؤلاء الظالمون القابعون في ميادين الفحش الإنساني والعهر الأسودي الذي انضم إلى الصفحات السوداء من التاريخ البشري،
و هنا يسجل الزمن ساعات من الاحتضار،

صفحات من تاريخ سوريا يسطرها الإنسان المجرم وأتباعه ممن تلوثت أيديهم بالدماء البريئة

وممن يؤيدونه ويؤيدون تلك الأفعال الشنيعة بحجة السلم الأهلي وبحجة المصالح الشخصية والمنافع الآتية ناسين الوطن الذي ينزف الدم ويترنح تحت وطأة العار الأسودي والبعني الجائر

. دعوني أستشيط من الغضب دعوني أرتقي حم اللهب

دعوني أمتطي سرج الجياد الراحلات إلى الرتب

(تبث يدا أبي لهب وتب)

قاموا على (التشبيح) والإرهاب قاموا على ترنيمة الموت العجاف

(تبت يدا أبي لهب وتب)

فمحابي التاريخ تذكر فعلهم

ومنابر الأيام تصرخ بالألم وتقول للطاغين من قلب الضلوع بلا نصب

تبت يدا أبي لهب وتب

لن تقتلوا فكري وإن زعمتم أنكم خانقوه

لن تستطعوا فك الرموز وإن وصلتم إلى جنان الأمور

فأنا سوري أبي مكن التاريخ مني هالتي

وأحجم التشفير قبضته علي فارداني في حضون الإباء والشموخ

ورمحت نحو العلي فاستعصيتك على الهوان وأبيت الخنوع.

المصادر: